منهج الذكاء العملي

د. وردة معزي(*)

تمهيد إشكالي

«تسترد الفلسفة عافيتها عندما تكف عن أن تكون وسيلة تصطنع لمعالجة مشكلات الفلاسفة وتصبح منهجا يستخدمه الفلاسفة لحل مشكلات البشر»[1]. (جون ديوي)

لا شك أن الواقع البشري الراهن، يشهد أزمات وعقبات ومركب من المشكلات في شتى مناحي الحياة، وإذا كانت جادة إرادة الفلاسفة، إعادة البناء وإصلاح العلاقات والشؤون الإنسانية، انطلاقا من الأحداث السابقة، فإن المسألة الأهم:

كيف يمكن حل مشكلات البشر؟ وإجراء مثل هذا التغيير في مجرى الأحداث البشرية؟

ماهي استراتيجية أحداث التغيير، في سائر وقائع حياة الإنسان الراهن، ومظاهرها، تغييرا واسعا، وسريعا، وعميقا؟

تدابير فلسفية نقدية من أجل الشأن الإنساني

تحيلنا هذه العبارة، للآخر وجه البراجماتية، فكما كانت الفلسفة أحد أنماط التفكير، تفكيرا عميقا، يعتد بالروح التحليلي النقدي العميق، لذلك يتعين عليها التركيز على الحالة الراهنة لمشكلات البشر، أفراد أو مجتمعات، فمهمة الفيلسوف، الانكباب على البحث عن آليات، لحل مشكلات المجتمع[2]، بدلا من الانشغال التقليدي، بالهرطقات الكلامية، والحلول

(*) أستاذة بجامعة باتنة - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية (الجزائر).

(1) Jhon Dewey and others, Creative intelligence, Essays in the pragmatic attitude, NewYork, H.Holt, 1917, p 65.

(٢) جون ديوي، إعادة البناء الوظيفي في الفلسفة، تر/ أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص ٥٤.

اللفظية، والجدل العقيم، ذلك أن مثل هذا التوجه لإحلال فلسفات جادة، تتلاءم ووجهة، عالمنا الراهن، والمتسارع الخطى نحو التغيير والتقدم، إذ يشهد حركة سريعة، وسيولة غير مسبوقة، في تطور المعارف، وصراع الأفكار والمفاهيم بذاتها، والتي تسبح في فضاء التجريد الخاوي، والشرف الميتافيزيقي النظري، لا يمكنها بأي حال من الأحوال، أن تسعف البشرية في واقعها المعقد المعيش، ذلك أنها تنأى عن قضايا الإنسان والأفكار وحتى المذاهب الفلسفية، محكوم عليها بالإعدام، من قبل الفيلسوف البراغماتي.

إن ضرورة تحديث، وتجديد، وصقل، الخطاب الفلسفي، بما يتماشى ومشكلات الإنسان الراهن، مسألة جادة وهامة وخطيرة، وتعد بحق من أمهات القضايا والطروحات الفلسفية العقيمة، مباردة فلسفية أصيلة، لابد منها، لإدراج و إحلال عاملي: الواقع والتغيير، وما يترتب عن هذا الأخير من تعديل وتحسين وتقدم، في السلوك وفضاءات الحياة البشرية، لعل هذه القضية، باتت من أولى الطروحات الفلسفية، وأكثرها جوهرية وأصالة.

ولما كانت الفلسفة بطبيعتها، تأملا نظريا، لذلك ظلت عاجزة عن تقديم حلول نهائية، مترددة عن إعلان القول الفصل، لكنها بسعة نظراتها، واتساع أفقها التأملي الشمولي، قادرة على استيعاب القضايا البشرية الراهنة، تحليلا وطرحا، هذه القدرة تعد في حد ذاتها، ذات قيمة، إلا أنها تستعصي على العقل العلمي[1].

إن مثل هذا التوجه العملي الجديد، في حقل الأبحاث الفلسفية، يحيلنا للسؤال: ما هي الأداة التي من شأنها التعجيل بتطوير قدرات العقل البشري، والإسهام في تجديد واقع الحياة؟

ميكانيزم الدفاع، ضد هدر الخبرات البشرية

إذا كان المجتمع الديكتاتوري يكبت الإبداع، فإننا على عقيدة، إقرار الحريات الفردية، وحمايتها، وبهذا فهو يمهد الطريق، نحو العمل على تفتح شخصية الفرد، والانفتاح الاجتماعي ونمو قدراته، ومن ثمة، شعور الفرد، بأهميته وقيمته السيكولوجية والأنطولوجية، كذات حرة واعية، حاضرة في حركة التقدم الاجتماعي، هذه الأخيرة التي لا يمكن أن تتأسس، على دعائم

(١) برتراند راسل، حكمة الغرب، ترجمة/ فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة، الفنون والآداب، الكويت، (د.ت، د.ط)، ص ٢١٦.

الصراع الطبقي، وتشطير المجتمع، إلى فئات وطبقات، بعضها يلغي البعض الآخر، في بيئة داروينية ماركسية ضاجة بأشكال وصنوف التنافس، صاخبة بعلاقات العدوان و«حرب الكل ضد الكل»، في ظل إنية جماعية مفرطة، تفرضها طبقة من المجتمع، لتكفل مستقبلها على حساب طبقة ثانية[١].

ذلك أن انشطار المجتمع إلى طبقات، لا يعبر عن دينامية هذا المجتمع، وتفاعل علاقاته الإنسانية بغيجابية وأخلاقية، بقدر ما يكشف عن وجود خلل عميق في بنية العلاقات الإنسانية، القائمة بين أعضائه، أفرادا وجماعات، حكاما ومحكومين، صراعات تؤطره عوائق جوهرية، عقلية من طبيعة إنسانية، فالبنية التحتية القاعدية، لتكوين إنسان، كعضو نشيط فكريا، واجتماعيا، لا تتوقف على شروط مادية، بقدر ما تديرها عوامل بشرية، خاصة بالإنسان من حيث هو كذلك.

وعلى سبيل المثال، الزيادة المسعورة لإنتاج العمال للسلع، بطريقة لاغية لنمو العقل، مانعة لإمكان تذوق لذة الإنجاز في العمل، توضح حماقة الهوة في فصل الإنتاج عن الاستهلاك، ومن ثم، تجريد الحياة الحاضرة من مظاهر الرفاه والثراء، وحدوث الكوارث والأزمات الاقتصادية، أكثر من ذلك، وانتشار الفراغ والنكبات، في المجتمع الرأسمالي، منطقها، إنها بمثابة شرنقة القدرات العقلية، في ظل مقاومة لإمكانات الإبداع، أزيد من هذا إنها بيئة اجتماعية اقتصادية باعثة على تحريض الانحراف، وفتور الهمة[٢].

المسألة تحتم شن هجوم على السياسية الليبرالية، مادامت شطرت المجتمع إلى طبقات، ليس بسبب تأسيسه على المنافسة، ولكن بنتيجة إصرارها على استغلال «الإنسان»، لصالح ربح أناني ليبرالي، مؤقت وشرس، إن المنافسة السلبية تعبر عن الصراع الفارغ، المدمر للقوى البشرية: الجسدية والعقلية والمجتمع، آجلا أم عاجلا، طالما هو يفكك ويبدد الجهود البشرية، معنى ذلك أن السياسية الاقتصادية للبارونات، يؤدي منطقها لاستغلال ولاستبداد الإنسان، بشراهة شرسة، وهي مسألة يتضمن منطقها تعبيد الطريق نحو قمع القدرات الفردية، وإلغاء الذات، ويترتب على ذلك، تخلف المجتمع، ولذلك نجد المجتمع الديمقراطي الأصيل، يعتبر عن عدائه

(١) جون ديوي، الطبيعة البشرية والسلوك، تر/ محمد لبيب النجيحي، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنسر، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٨٤.

(٢) جون ديوي، الطبيعة الإنسانية والسلوك، تر/ محمد لبيب النجيحي، مصدر سابق، ص ص، ٢٨٥ - ٢٨٦.

المتأصل للتقسيم الطبقي، ومعاداته لإهانة الكرامة الإنسانية، ومقته اللامحدود، للنزعات المعادية الفردانية للإنسان، من حيث هو كائن بشري، له خصوصياته السيكولوجية، الذاتية المستقلة، وهذه القضية تمت بوشائج صلى للمقولة الديكارتية «الإنسان ذاتا حرة مستقلة».

إن الشرور التي أصابت المجتمع البشري - ليبراليا كان أم اشتراكيا - بألوان الظلم، والردة الأخلاقية التي أصابت التقدم الاجتماعي يوضح أن التقدم الاجتماعي محكوم بقاعدة، الحتمية الاقتصادية[1]، وبغض النظر عن التوصيف الماركسي أو البراجماتي، لا يمكن بأي حال من الأحوال، إنكار دور العامل الاقتصادي في رفاه الإنسان وتحسين ظروف حياته، ومن ثم تهيئة أجواء تفتح الشخصية «للفرد»، وتأمين شروط التقدم الواعد «للمجتمع».

على أن نمو الفرد وازدهار المجتمع كلاهما فضيلة، لا تتحقق إلا في إطار الإبادة والحرب، ولكنها حرب ضد كل محاولة من شأنها أن تحد من ذكاء الفرد، أو الجماعة في الممارسات الفعلية في واقع الحياة العملية، ولذلك:

منهج الذكاء

هو الآلية الفعالة لتحقيق التقدم الاجتماعي، والبحث عن حلول لمشكلات الإنسان، والتقليل من حدة التوتر، وتقليص حجم الصراع، وقمع مجالاته، ذلك الصراع المرادف لشرور البشرية وبؤسها، فاعتقاد الماركسية، بزيادة حده وحجم الصراع بين الطبقات يولد التوتر والتغير الراديكالي الثوري المولد للتقدم، لاشك أنه اعتقاد مريض، يعاني من شوائب ذاتية وخلفيات سيكولوجية، مسيئة للنوايا الحسنة، لفكرة التقدم، بدليل أن الصراع على مر الزمن وبشهادة التاريخ والواقع، أنه مفضي للتوتر، ويصيب قدرات الإنسان وطاقاته بالصدأ أو التآكل، من ثم فهو نذير تخلف، وموت وفناء، ليس العكس، فالصراع بين الطبقات، الاجتماعية، أفراد جماعات، إن هو إلا آلية تدمية وتقهقر وحرب وإبادة وخسران مبين، وآلية ذلك، أن هذه الحقيقة الجوهرية للصراع، ما أدت إخفاق الماركسية في مطلع ق ٢٠...ومن هنا لدور المنوط للفلسفة، يتطلب السعي لتطوير «منهج الذكاء» بوصفه الميكانيزم الفعال والسري لحل مشكلات البشر فرديا واجتماعيا.

(1) Jhon Dewey, Liberalism and Social, Action, NewYork, Putnam, 1935, p 102.

إن تأمل الواقع والتاريخ البشري، يبرز مجالات واسعة، ومشاهد غير رائدة لإخفاق الخير الإنساني، في ميادين شتى من الحياة البشرية، ورغم ذلك هذا الكلام لا يحمل الدعوة لليأس والحسرة، والاسترجاع الحزين، طالما الفرصة متاحة على الدوام، لتغيير الواقع، وتحوير مظاهر الحياة، وإدارة شؤونها حسب رغبات البشر وتصميمهم، لا يتحقق ذلك إلا بفضل اقتناء أداة فعالة، ورائدة وأكثر نجاعة لحل المشكلات الإنسانية والاجتماعية، تلك المشكلات التي تثير انزعاج الناس، على مر الزمان، وتقضي على الوجه الطيب المرح للوجود والحياة.

إن «منهج الذكاء» أو «المنهج العلمي البراجماتي» تسمية مختزلة، لمنهج عظيم، يتطور باستمرار، خاصة، بالملاحظة، والتجريب، والبرهان والكشف[١].

والحق هذا المنهج متأصل في الطريقة التي صاغها «فرانسيس بيكون»، بوصفه المؤسس الحقيقي للفكر الحديث، لقد تميز «بيكون» بالتركيز على أهمية إجراء التجارب، أو ما أطلق عليه «التجريب الفعال» مقابل، المنهج التأملي النظري السلبي، لوقائع الطبيعة.

إن إبراز ميزة «المنهج التجريبي»، أنه يرغم الوقائع على الكشف عن نفسها، والبوح بحقيقة أسرارها[٢].

لكن، إذا كانت وقائع الطبيعة ميدانا موضوعيا مستقلا عن ذهن الباحث، ومجالا لتطبيق المنهج العلمي، إذن: فماهي البيئة التي يطبق فيها منهج الذكاء؟.

لما كان هذا المنهج الأخير، هو ما يوضح للإنسان الاتجاه الفكري الإيجابي، والمؤدي لتطوير قيمه الفعلية[٣]، ذلك أنه ما دام الإنسان، كائنا حيا، بالدرجة الأولى، يعيش في وسط اجتماعي وطبيعي، شائك بألوان العقبات، والحواجز، والمشكلات، المنبثقة عن طبيعة الحياة، والمتجددة باستمرار، جراء علاقته ببيئته، الاجتماعية والطبيعية، لذلك فلا مخرج من أزماته. أنه يرغم الوقائع على الكشف فمن نفسها والبوح بحقيقة أسرارها.

---

(١) جون ديوي، إعادة البناء في الفلسفة، مصدر سابق، ص ٦١.

(٢) نفس المصدر، ص ص، ٦١ - ٦٢.

(٣) جون ديوي، إعادة البناء في الفلسفة، المصدر السابق، ص ٣٤.

ما هي بيئة تطبيق منهج الذكاء؟

ما دام منهج الذكاء هو المنهج الذي يوضح للإنسان الاتجاه الفكري الإيجابي، والمؤدي لتطوير قيمة فعليا.

ذلك أنه مادام الإنسان، ككائن حي بالدرجة الأولى يعيش في وسط اجتماعي وطبيعي شائك بألوان العقبات والحوافز والمشكلات المنبثقة والمتجددة باستمرار، جراء علاقته ببيئته، السوسيوطبيعية، لذلك فلا مخرج من أزماته، سواء استخدام قوة الذكاء، ليس العقل قوة ميتافيزيقية، بقدر ما هو عضو حي، وظيفته التكيف باختراع الحلول العملية، وتخيل الفروض، جملة الممكنات والحلول، التي يتخذها وسيلة أو أداة، للتغلب على مشاكله، وتجاوز لعقباته، التي تثيرها البيئة الاجتماعية الطبيعية، وبالتالي الفكر بقوة الذكاء العملي أداة، تفيد الكائن في تحقيق التكيف.

وعليه هذه العملية تتطلب اتباع خطوات:

أولا: موقف إشكالي:

لا يجد الكائن البشري نفسه مضطرا للتفكر، وتلمس طريق حلول عقلية مبتكرة، إلا إذا وجد نفسه إزاء مشكلة معينة، إن اقتناع الفرد وتسلمه بأن يقف إزاء مشكلة، يصيب بالعمى والذهول والعجز، ولذلك فإمكان استخدام مصطلحات إيجابية، له طاقة هامة في دفع عجلة السيكولوجية والذهنية، ومن ثم إمكان الخروج بحلول مبتكرة، وعليهProblomatic situation الموقف الإشكالي المعبر عن عجز الكائن البشري عن التفاعل مع محيطه، إنه يتطلب التخلي عن الأساليب التأملية، التقليدية، والتذمر الكئيب، واللجوء لطريقة علمية تجريبية في التفكير، ورياضية الميول السيكولوجية التي تسهم إسهاما بالغ الأهمية في تذليل العقبات والسيطرة على الواقع.

وبالتالي السيطرة على الموقف الإشكالي، وتجاوز الوضعيات المعقدة، وصنفوف الحواجز المعيقة للسلوك البشري، نشيط وتحوير ذكي للواقع، مؤسس على الملاحظة الاستقصائية، وفحص العروض كحلول انتقاء أي هذه الفرضيات والحلول أصلح لتجاوز الأزمة[1].

(١) جون ديوي، البحث عن اليقين، تر/ أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٩٣.

الملاحظ أن منهج الذكاء يسير في خط مفاهيم نظرية التطور: مقتديا بعباراتها الطنانة.

المشاكل لا يمكن حلها إلا عندما، توجه شطر العمل، ومن ثم تعديل السلوك، غير أن حلها سواء انطوى على قيم الخير أو الشر، فانه متوقف على ضرورة حضور طريقة محددة ومضبوطة الخطوات سلفا. من المرجح أنه كلما زاد الإحساس بالمشكلة أقوى، كلما عجل بالبحث عن حلول لها.. لذلك يجب أن يكون المنهج المقبل، أكثر مرونة وانفتاح ومرونة أيضا، ومن واجب الفلسفة أن تطور طريقة ديناميكية، تساعد على تصور حلول لمشكلاتها.

أن المقاربة المنهجية البراجماتية، تشيد بالعمل والتركيز على مشكلات الناس، في الواقع المعيش، ولذلك فهي جديرة بتزويد المرء بمنهج لمواجهة الواقع وتشعب إشكالاته، لأجل تعديل العوامل والقضايا المتضاربة في الحياة، هذه الطريقة ما يطلق عليها: منهج الذكاء العملي أو المنهج البراغماتي، انه المنهج الذي ينطلق من التأسيس:

أولا: البراغماتي العملي للحقيقة.

ثانيا: الإشادة بتطبيق المنهج العلمي.

لهذا يسعى المنهج العلمي «منهج الذكاء»، لصياغة مبادئه وحلوله، على أسس علمية، بروح واقعي وموضوعي، ومنه فهو يقصي أي افتراضات، تتعارض ومنطق الروح العلمي، أن مضمون هذا التوجه، أن منهج الذكاء، يقصي كل الأفكار والفرضيات، الدغماتية الزائفة، لأنه يبتعد عن شرنقة الميتافزيقا المغلقة.

هذا المنهج إذ يسير في طريقه، متلمسا النور، للتبصر بقضايا الواقع، ومشكلات الإنسان العملية بحثا عن حلول افضل لمشكلات البشر، فانه يرتكز لعاملين: إحدهما، **قوة الذكاء** البشري كقدرة عقلية خلاقة، ترمي لتوجيه الإنسان ومصيره.. والآخر، أما كانت البراغماتية، تصر على الدوام، أن المعرفة انجاز بشري ملموس، وليست اشراق صوفي، يتبصر بالحقيقة، لذلك، فمشكلات البشر، ليست مشكلات معرفية صرفة، بقدر ماهي مشكلات في السلوك، يفرضها الواقع، بقوة منطق الحياة المعيشة، مما يحتم ضرورة معالجة هذه المشكلات بمنطق يلائم طبيعتها، والمتمثل في الأخذ بمنهج الذكاء العملي، ذلك أن ربط الذكاء بالفعل، والعقل بالعمل، والتفكير بالواقع، ترابطا من شأنه أن يقود إلى ابتكار حلول لقضايا الإنسان.

خلاصة القول

منهج الذكاء العملي، أو منهج الذكاء البراغماتي، يتأسس على قواعد مضبوطة، تسعى للكشف عن المستقبل، ومنه يمكن الارتكاز على هذا المنهج، لبلوغ مستقبل واعد وأكيد، ومنه فهو الطريق الملكي، لتحقيق، الرضا والنجاح، طلبا لمزيد من الخيرات والفضائل، بالمعيار البراغماتي لتصور الخير..

انه المنهج الذي يقهر الطبيعة ويحور طبيعة الإنسان ذاتها، ويطور مهاراته وقدراته، ويوسع فضاء مكتسباته ومنافعه، كما يفسح المجال، لاستعباد عقول أخرى.

اذن، يتضح أن **منهج الذكاء** الذي ابتكر لحل مشكلات إنسانية، مفرغ وخاو من محتواه الإنساني. مما يحتم طرح السؤال: ما هي خلفية هذا المنهج، ونتائج تطبيقاته، في البيئة الامريكية على الأقل؟ وما هو حجم انعكاساته في الواقع الدولي..؟

ألا يمكن اعتبار «الأمركة» أو «العولمة»، اعني الهيمنة الامريكية على العالم، امتداد طبيعي، لمنهج الذكاء العملي، والإشادة بمقولة البقاء للأقوى.. الذي يفرض سلطانه بلا حدود ولا سدود على الآخر، معتدا بذكاء القوة بدل قوة الذكاء.. موسعا لنفوذه دون أية قيود، على العالم، كمجال حيوي، داروينى نيتشوي، تدير شؤونه قاعدة الصراع من أجل البقاء..

ألا يحق القول بان منهج الذكاء، تقنية لصياغة الإنسان البراغماتي؟ وحيلة لتصويغ جبروت السوبرمان الأمريكي بما هو الإنسان الاخير وخاتم البشر؟؟؟